

أصول المصطلح النقدي والبلاغي عند حازم القرطاجني (608هـ – 684 هـ)

THE TERMINOLOGICAL PHENOMEN IN HAZIM AL-QARTAJANNI BOOK

محمد كوشنان *

كلية الآداب واللغات - جامعة الدكتور يحيى فارس بالمدينة (الجزائر)، Kouchenane1980@gmail.com

مخبر الدراسات المصطلحية والمعجمية

تاريخ النشر: 2021/09/27

تاريخ القبول: 2020/07/20

تاريخ الإرسال: 2018/08/08

ملخص:

يعالج هذا المقال ظاهرة المصطلح عند حازم القرطاجني في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء، وذلك من خلال البحث في إشكالية وضع المصطلح عنده، كما أنه يحاول النظر في منظومته المصطلحية ورصد منابع التي استجلب منها مصطلحاته واستقطبها منها، سواء ما رجع منها إلى تراث الأسلاف من النقاد والبلاغيين العرب وغير العرب؛ أو ما رجع إلى الفلاسفة المسلمين والمنطق الأرسطي.

الكلمات المفتاحية: الظاهرة المصطلحية؛ حازم القرطاجني؛ استجلاب المصطلحات؛ المصطلحات المركزية.

ABSTRACT :

This article addresses the term phenomenon in Hāzim al-Qartājānnī book Minhāḡ al-bulagā' wa-sirāḡ al-udabā', by reseaching the problem of Term setting , and It tries to look into his Terminology system and observing the sources from which he imported and gathered his terms ,whether from the ancestors legacy of arabs and non arabs critics and rhetoric scholars , or from muslim philosophers and aristotelian logic.

Keywords: Terminological phenomenon; Hāzim al-Qartājānnī; Terms importation; Central terms.

1. مقدمة:

لا شك أن فهم أي علم أو أي نظرية يقوم بالدرجة الأولى على سبر المصطلحات، ويعتمد على الفهم الدقيق لها، كون المصطلح هو الركيزة الأساسية لتلك العلوم والنظريات، وهو أيضا الدعامات الحيوية التي تسترشد بها العناصر المشكلة لها؛ ولما كانت المصطلحات مفاتيح كل العلوم وبواسطتها يلج الباحث إلى فهم كنه نظرية ما، جاءت رغبتنا في طرق الظاهرة المصطلحية عند القرطاجني، وتناول طبيعة المصطلح وأهميته في نظريته النقدية.

* المؤلف المرسل

ولا شك أن عناية حازم بالمصطلح كانت إيماناً منه بأن المصطلح هو السبيل إلى إظهار مدى اتساع وعيه النقدي والبلاغي، ومن ذلك قوله بإمكانية جريان المصطلح بين السابقين واللاحقين مع حرية التصرف فيه من خلال طُرُق الزيادة والاستنباط والاشتقاق والنَّحت وغيرها إذ يقول: "ولا تَشَاخ في الألفاظ، كما أنَّه لا حَرَج على من عدل عن ما تقتضيه تلك الأسماء في المسَمَّيات، إذا أراد الإفصاح عن جهات مشابَهاً لِمَا نُقِلَتْ إليها من التسمية والتَّمثيل الصحيح في ذلك"⁽¹⁾.

على أنَّ فضيلة التصرف في المصطلح لم تكن حكراً عند حازم، وإنما قد صرَّح بذلك النقاد والبلاغيون قبله، فهذا قدامة بن جعفر (ت 327هـ) قد نادى في القرن الرابع الهجري بالمشاركة في وضع المصطلح واستنباطه ويرى لنفسه الفضيلة في ذلك حين يقول: "ومع ما قدَّمته فإني لَمَّا كنت آخِذاً في معنى، لم يُسَبَق إليه من يضع لمعانيه وفنونه المستنبطة أسماء تدل عليها، إحتجْتُ أن أضع لِمَا يظهر من ذلك أسماء اخترعْتُها، وقد فعلتُ ذلك والأسماء لا مُنَازعة فيها"⁽²⁾.

وكان هذا دأب كثير من النقاد حتى عصرنا، فقد شغلت قضية المصطلح جُلَّ العلماء على مر العصور وذلك كنتيجة حتمية، كانت تدفعهم لابتكار المصطلحات التي تخدم العلم والنقد والبلاغة، إذ الأساس من دراسة المصطلح هو أن " يتفق عليه اثنان أو أكثر، وأن يستعمل في علم أو فن بعينه ليكون واضح الدلالة مؤدياً المعنى الذي يريده الواضعون"⁽³⁾، وكان الدافع إلى ذلك أيضاً هو " أن يُبتكر (المصطلح) فيوضع، و يُبَيَّن ثم يُقَدَّف به في حلبة الاستعمال فإما أن يروج فيُثَبَّت، و إما أن يكشَد فيُمحَى"⁽⁴⁾.

ولسنا نزعم أننا سنأتي في هذه الورقات على الدراسة العميقة لأصول المصطلح النقدي والبلاغي عند حازم في كتاب المنهاج⁽⁵⁾؛ وإنما الذي نتوخاه هو أن نتوقف عند طبيعة المصطلحات سواء أكانت تلك المصطلحات من وضعه هو أم من وضع غيره، بمعنى أننا سنتناول المنابع التي استقى منها مصطلحاته، أو بالأحرى أصول المصطلح عنده، ثم سنخرج على أهمية المصطلح عنده.

2. أصول المصطلح عند القرطاجني

مما لا شك فيه أن المنظومة المصطلحية عند حازم تتنازعها جهتان، أو لنقل أن منابع معجمه المصطلحي تجمع بين ما هو عربي أصيل، وما هو أجنبي دخيل.

فعصر حازم المتأخر قد ساعده إلى حد بعيد على أن يهضم الثقافة النقدية السابقة، وأن يكون واسع الاطلاع على مقاييسها ومصطلحاتها، الأمر الذي أعطاه رحابة استخدام المصطلحات، سواء ما رجع منها إلى المصطلح النقدي والبلاغي، أو ما رجع إلى جهة الفلسفة والدين والحضارة.

فمن الأعلام الذين أخذ عنهم واستشهد بهم في غير موضع من المنهاج "الخليل بن أحمد الفراهدي (ت 175هـ)" الذي استشهد بكلامه ليدل على معنى مصطلح "المطابقة" فقد قال: "قال الخليل: طابقتُ بين الشيئين

إذا جمعتها على حدٍّ واحد وألصقتهما⁽⁶⁾، وأيضاً استشهد بكلامه ورأيه حينما تعرض لمصطلح "الضرورة الشعرية" واختلاف النقاد فيها⁽⁷⁾، كما أن القرطاجني ناقش الخليل في بعض المصطلحات العروضية ومنها أنه يخالفه في تسمية الأوتاد والأسباب، ويُبيِّن ألاَّ تشاح في الألفاظ بعد أن يفرغ من مناقشته الخليل⁽⁸⁾.

ومن العلماء الذين كان لهم الحظ الأوفر في تشكيل المنظومة المصطلحية لحازم نجد "قدامة بن جعفر" الذي يعتبره القرطاجني "من البصراء بهذه الصناعة"⁽⁹⁾، وهو في نظره من "البلغاء الذين لا مُعَرِّج لأرباب البصائر في إدراك حقائق الكلام إلاَّ على ما أصَّلوه"⁽¹⁰⁾، فحازم على الرغم من كونه يعتدُّ بكلام قدامة بن جعفر، ويرى فيه إماماً من أئمة صناعة البلاغة، نراه يخالفه في بعض الاصطلاحات البلاغية ومن ذلك مخالفته له في مفهوم المطابقة، فحازم ينظر إلى المطابقة بأنها تكون بوضع أحد المعنيين المتضادين أو المتخالفين من الآخر وضعاً متلائماً⁽¹¹⁾، ويرى أن "قدامة يخالف في هذه التسمية فيجعل المطابقة تماثل المادة في لفظين مُتَعَايِرِي المعنى ويسمِّي تضاد المعنيين تكافؤاً، ولا تشاح في الاصطلاح"⁽¹²⁾.

ونزعم أن استفادة القرطاجني من النقاد والبلاغيين العرب السابقين عنه، والنهل من مصطلحاتهم، لا يمكن عدّه، ولا حصره في هذه الورقات، فالرافد العربي الأصيل الذي أثرى من دون شك المنظومة المصطلحية لدى القرطاجني يتدخل فيها عدد لا بأس به من النقاد، تأثر بهم وأخذ عنهم مصطلحاتهم النقدية والبلاغية وطعّمها بمفاهيم من عنده⁽¹³⁾.

وهناك مسرب آخر عربي هو أيضاً، غير أنه ثنائي الشكل والمضمون ويتعد عن البلاغة والبيان، ونقصد به منبع الفلاسفة المسلمين "فقد كان تأثر حازم بهم أكبر وعلاقته معهم أوثق، إذ شكّلوا له منبعاً (نقدياً فلسفياً) مزدوجاً، فأخذ عنهم مصطلحات النظرية النقدية التي ضمّنها ترجماتهم وشروحهم وتلخيصاتهم لكتاب أرسطو (فن الشعر)، مثلما أخذ عنهم مصطلحات منطقهم وفلسفتهم من مظانها"⁽¹⁴⁾.

لقد شكلت المصطلحات النقدية والفلسفية التي استقاها القرطاجني من البيئة الفلسفية ركناً رئيساً في تشكيل بعض المفاهيم والمعالن التي بنى على أساسها نظريته النقدية والبلاغية، ومن أولئك الشيخ الرئيس ابن سينا (ت428هـ)، والفارابي (ت339هـ)؛ فقد أحال القرطاجني على الفارابي مرتين في المنهاج أخذاً منه في الأولى مصطلح الأقاويل الشعرية في قوله: "وقد قال أبو نصر الفارابي في كتاب الشعر: الغرض المقصود بالأقاويل المخيلة..."⁽¹⁵⁾ إذ يذهب الفارابي إلى تعريف الأقاويل الشعرية بأنها "هي التي تُؤَلَّف من أشياء شأها أن تُخَيَّل في الأمر الذي فيه المخاطبة خيالاً ما أو شيئاً أفضل أو أحسن، وذلك إما جمالاً أو قبحاً، أو جلالاً أو هواناً، أو غير ذلك مما يشاكل هذه"⁽¹⁶⁾.

وفي المرة الثانية أخذ عنه مصطلح التصديق في قوله: "ثم قال (يقصد الفارابي): سواء صدق بما يُخَيَّل إليه من ذلك أم لا..."⁽¹⁷⁾، إذ التصديق عند الفارابي يقع في الأقاويل الخطبية التي من شأنها إحداث الإقناع في أي رأي كان، بأن يعميل بذهن المستمع إلى أن يسكن إلى ما يقال ويصدق تصديقاً، ويكون ذلك بالاعتماد على الأقاويل الاقناعية⁽¹⁸⁾.

تناول حازم لمصطلح التصديق جاء على خلفية تعرضه لقضية الصدق والكذب وما شابها من انحراف في المفاهيم، والوهم الزائد عند من أدخلوا الشعر في دائرة القول الكاذب، وزعموا أن الصدق ينتفي عن فنّ الشعر فالقرطاجني من أولئك الذين ينتصرون إلى الصدق في الشعر، ويظهر ذلك من خلال اقتفائه لمنهج الفلاسفة العرب - من أمثال الفارابي - في معالجة هذه القضية، فهم من ربطوا فاعلية الصدق بالشعر، وفعالية الإقناع بالخطابة إذ تعتبر الخطابة "جودة إقناع بقصد التصديق، أي إنها صناعة تعتمد على الطرق الاقناعية بغرض إيقاع التصديق، أما الصناعة الشعرية فهي صناعة تخيلية لا تهدف إلى التصديق"⁽¹⁹⁾، ومعنى هذا الكلام أن الجوهر بين الخطابة والشعر يكمن في التخييل والتّصديق، فالشعر هو تخيل والخطابة إقناع بدليل أن ما تقدمه الخطابة عن طريق الإقناع بقصد التصديق، يقدمه الشعر بالطرق التخيلية لا التصديق⁽²⁰⁾.

وعلى هذا الأساس يظهر عند القرطاجني أن الاعتبار الذي سمي به التخييل تخيلاً غير الاعتبار الذي سمي به التصديق تصديق، فالتصديق عنده "يراد به دلالة الكلام على حقيقة الموجود، وينظر فيه إلى حالة المقول فيه؛ أما التخييل فيعتبر فيه القول نفسه، دون نظر إلى مطابقته لحال المقول فيه، فالعبرة إذن ليست بصدقه أو كذبه، ليست بمطابقته للحقيقة، بل باستعداد النفس لقبوله"⁽²¹⁾.

أما ابن سينا وهو الملهم للقرطاجني في ابتداع [علم الشعر المطلق]، فقد شكّل حيّزا مهما في كتاب المنهاج من حيث إحالة حازم على مصطلحاته الفلسفية، ولا عجب في ذلك إذ كانت غاية حازم هي من جملة ما أشار إليه ابن سينا؛ وقد أحصى الباحث عباس عبد الحليم عباس جملة المصطلحات التي استمدّها حازم من ابن سينا ووجد أنها تزيد عن الأربعة والأربعين مصطلحا⁽²²⁾.

ومن أمثلة المصطلحات التي أخذها القرطاجني عن ابن سينا مصطلح "التخييل"، فحازم يعرف التخييل بأنه أن «تَمَثَّلُ لِلسَّامِعِ من لفظ الشاعر المُخَيَّل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورة أو صور ينفع لتخيّلها وتصوّرها، أو تصور شيء آخر بها انفعالا من غير رَوِيَّةٍ إلى جهة من الانبساط أو الانقباض»⁽²³⁾، وهذا المفهوم شبيه بقول ابن سينا لفظا ومعاني، فهو سار على هدي كلام ابن سينا الذي يتحدث فيه عن الكلام المُخَيَّل حيث يقول: «هو الكلام الذي تدّعون له النَّفْسُ فتنبّسط عن أمور، وتنقبّض عن أمور من غير روية وفكر واختيار، وبالجملة تنفعل له انفعالا نفسانيا غير فكري، سواء كان المقول مصدقا به أو غير مصدق»⁽²⁴⁾.

ويرى أيضا أن التخييل يحسن موقعه من النَّفْس حينما يقصد الشاعر إلى أن يَتَرَامَى في شعره إلى أنحاء من التّعجيب ذلك ما يدفع المتلقي إلى التأثر ويحدث العُجْبُ لديه؛ ويذهب حازم إلى أن التّعجيب "يكون باستبداع ما يثيره الشاعر من لطائف الكلام التي يقلل التهدي إلى مثلها، فورودها مُسْتَنْدِرٌ مستطرف"⁽²⁵⁾.

كما أخذ القرطاجني مصطلح التعجيب عن ابن سينا ولكن بمنحى يختلف عنه، ففي الوقت الذي ينظر فيه ابن سينا إلى التعجيب على أنه نتيجة للمحاكاة التي تؤدي إلى التخيل، يذهب حازم إلى الاعتقاد بأن التعجيب هو زيادة في تحسين التخيل⁽²⁶⁾. لذلك نرى حازما يحدد أنواع التعجيب التي يمكن أن تقع في الشعر، ويحدد الوجوه المتعددة المعبرة عن لطائف الكلام ومنها "التَهْدِي إلى ما يقلُّ التَهْدِي إليه من سبب للشيء تخفى سَبَبِيَّتُهُ، أو غاية له، أو شاهد عليه، أو شبيه له أو معاند"⁽²⁷⁾.

وكما كان لحازم تعامله مع المعجم المصطلحي النقدي أو الفلسفي العربيين، كان أيضا له تعامل آخر مع المعجم المصطلحي المنطقي الهيليني، "فحضور الموروث الفلسفي في كتاب المنهاج يضرب بجذوره في مجالين هامين من مجالات القول الفلسفي الكلاسيكي بوجه عام، والأرسطي المشائي منه بوجه خاص، ذلك أن المقولات الفلسفية الواردة ضمن قائمة مصطلحات (المنهاج) تنتمي في معظمها إما إلى المنطق أو إلى العلم الطبيعي"⁽²⁸⁾.

ولعل من بين المصطلحات البارزة التي ترجع في أصولها إلى البيئة اليونانية هو مصطلح "الشعرية" فحازم القرطاجني نراه ينكر أن تكون الشعرية في إجراء الكلام على الوزن والنفاذ به إلى القافية⁽²⁹⁾، وهو قول يمكن إرجاع أساسه إلى ما قال به أرسطو في كتابه فن الشعر إذ من «الواقع أن من ينظم نظرية في الطب أو الطبيعة يسمى عادة شاعرا، ورغم ذلك فلا وجه للمقارنة بين هوميروس وأنباذوقليس إلا في الوزن؛ ولهذا يخلق بنا أن نسمي أحدهما "هوميروس" شاعرا والآخر طبيعيا أو كُلى منه شاعرا»⁽³⁰⁾، فمن المرجح أن حازما قد أخذ هذا الكلام حين رجوعه إلى تلخيص ابن رشد لكتاب الشعر، فابن رشد نجده يحيل على أرسطو قائلا: «قال: وكثيرا ما يوجد من الأقاويل التي تسمى أشعارا ما ليس فيها من معنى الشعرية إلا الوزن فقط، كأقاويل سقراط الموزونة وأقاويل أنباذوقليس في الطبيعيات بخلاف الأمر في أشعار أوميرش فإنه يوجد فيها الأمران معا»⁽³¹⁾.

فهذا القول إذا ما أمعنا فيه النظر وجدنا شبيهه في كتاب المنهاج، فقد عمد حازم إلى مصطلحات القول السابق ومعانيه ليصوغ مفهوم مصطلح الشعرية ذي الأصول الأرسطية إذ يقول: «وكذلك ظن هذا أن الشعرية في الشعر إنما هي نظم أي لفظ اتفق كيف اتفق نظمه، وتضمينه أي غرض اتفق على أي صفة اتفق، لا يعتبر عنده في ذلك قانون ولا رسم موضوع؛ وإنما المعتبر عنده إجراء الكلام على الوزن والنفاذ به إلى قافية، فلا يزيد بما يصنعه من ذلك على أن يبدى عن عوراه، ويعرب عن قبح مذاهبه في الكلام وسوء اختياره»⁽³²⁾.

فكما يبدو مما سبق أن حازما كان يرجع إلى أرسطو مُهتديا في ذلك بشروح الفلاسفة المسلمين جاعلا من شروحهم واسطة في النقل؛ ويبدو أنه وجد في كتب الفلاسفة العرب ما يغنيه عن البحث، فقد توفرت له المادة العلمية ذات الأصول الأرسطية في الشروح التي قام بها هؤلاء الفلاسفة.

ومثال ذلك قول أرسطو الذي تكلم فيه عن مصطلح الغرابة إذ يقول «...وفي هذا المجال يشعر الناس نحو الأسلوب، بما يشعرون نحو الغرابة والمواطنين ولهذا يجب أن نظفي على لغتنا طابع الغرابة، لأن الناس تعجب بما هو بعيد، وما يثير الإعجاب يسرُّ ويُمْتَع»⁽³³⁾؛ فحازم استثمر هذا القول واتخذ منه مرتكزا في صياغة قوله في المحاكيات، مستهديا في ذلك بقول ابن سينا جاعلا منه واسطة في نقله، يقول ابن سينا «واعلم أن الرونق المستفاد بالاستعارة والتبديل سببه الاستغراب والتعجب وما يتبع ذلك من الهيبة والاستعظام والروعة، كما يستشعره الإنسان من مشاهدة الناس الغرابة، فإنه يحتشمهم احتشاما لا يحتشم مثله المعارف»⁽³⁴⁾، فتشابه الدلالات بين قول أرسطو وقول ابن سينا، أضفى عليها حازم صياغات جديدة وأخرجها في صور جديدة تكاد تكون نقلا ليس ببعيد عن صورته الأصلية، ومما يظهر أن حازما استفاد من ذلك في التعليل لسير التحرك والانفعال للمحاكيات المستغرية وفي ذلك يقول حازم: «وللنفوس تحرك شديد للمحاكيات المستغرية لأن النفس إذا خيل لها في الشيء ما لم يكن معهودا من أمر معجب في مثله وجدت من استغراب ما خيل لها ما لم تعهده في الشيء ما يجده المستطرف لرؤية ما لم يكن أبصره من قبل»⁽³⁵⁾.

وقد تأثر القرطاجني شديد الأثر بكلام أرسطو ويظهر ذلك بوضوح في حديثهما عن الأقاويل الشعرية وما يقع في صناعة الشعر من صدق وكذب؛ فأرسطو ناقش في كتابه فن الشعر طبيعة العلاقة بين الشعري والواقعي وحدودهما مما أدى به إلى إثارة قضية الصدق والكذب في الأدب وما يتعلق بهما من مستويات التخييل الشعري يقول أرسطو: "إن وجد في الشعر أمور مستحيلة فهذا خطأ، ولكنه خطأ يمكن اغتفاره إذا بلغنا الغاية الحقيقية من الفن، وإذا كان هذا الجزء أو ذاك من القصيدة قد أصبح عن هذا الطريق أبدع وأروع... ومع ذلك إن كان تحصيل الغاية ممكنا، على نحو أفضل أو مساو، مع احترام الحقيقة، فإن هذا الخطأ لا يمكن اغتفاره، إذ لا ينبغي أن يكون هناك أدنى خطأ ما استطعنا إلى ذلك سبيلا"³⁶

فمن خلال هذا النص يظهر أن أرسطو يميز في خلال حديثه عن طبيعة التخييل الشعري بين ثلاث مستويات من الابداع الشعري، وهي : الاختلاق الإمكان، والاختلاق الامتناعي ، والاختلاق الاستحالي³⁷.

وحازم لم يفوت فرصة الاستفادة من هذا الموضوع إذ نراه يبذل جهدا كبيرا في اختراع بعض المصطلحات وتوليدها من خلال استرفاد التراث الأجنبي، وذلك من خلال التعديل فيها حتى صارت تعد من إبداعه واختلاقه، ومنها:

الاختلاق الإمكان وهو مصطلح مبتكر يجمع بين مفردتين (اختلاق وإمكان) فقد صاغه بأن استعار المصطلح ذي الأصول الأرسطية (الإمكان) وجاء بلفظه (اختلاق) ليصفها بالإمكان أي الممكن الوجود في الواقع.

وحازم يعني بالاختلاق " أن يدعي الانسان أنه محب ويذكر محبوبا تيمُّه ومنزلا شجَاه، من غير أن يكون ذلك"³⁸، ويعني بالإمكان أن يذكر ما يمكن أن يقع من القول الشعري ومن غيره من أبناء جنسه³⁹.

أما الاختلاق الإمتناعي فيعرفه بقوله: "هو ما لا يقع في الوجود وإن كان متصورا في الذهن"⁴⁰، ويقصد بالاختلاق الاستحالي "هو ما لا يصح وقوعه في وجود، ولا تصوره في ذهن ككون الإنسان قائما قاعدا في حال واحدة"⁴¹.

ومما يدل على أن هذه المصطلحات ومفهوماتها تضرب بجذورها في البيئة اليونانية وللقرطاجني يرجع فضل التعديل وإسقاطه على ما يتلاءم مع أشعار العرب، نراه يذهب بالقول مثلا إلى أن الاختلاق الامتناعي لا يقع عند العرب في الشعر في أي جهة من الجهات وإنما كان شعراء اليونانيين يختلقون أشياء يبنون عليها تخايلهم الشعرية ويجعلونها جهات لأقوابيلهم، ويجعلون تلك الأشياء التي لم تقع في الوجود كالأمثلة لما وقع فيه ويبنون على ذلك قصصا مخترعة...⁴²

وليس ثمة ما يدعو إلى الشك في كون حازم يمثل أحسن من تشرّبوا المنطق اليوناني واستوعبوا مقولاته، واسترفدوا مصطلحاته، فحازم قد أحسن وأجاد في توظيف تلك المصطلحات في نظريته النقدية، فما يلاحظ على كتاب المنهاج أنه ترددت فيه مجموعة من المفاهيم الفلسفية ذات الولاء لكتاب الشعر الأرسطي بشكل أو بآخر⁽⁴³⁾، فلا خلاف إذّا في الذهاب إلى القول بأن حازما استرفد عددا كبيرا من المصطلحات الفلسفية المنطقية التي ترجع في أصولها إلى الثقافة الهيلينية اليونانية، وبخاصة كتاب الشعر لأرسطو، والذي يستشهد به في كثير من المواضع.

ولا يفوتنا أن نشير إلى منبع آخر شكّل بدوره مصدرا من مصادر استجلاب المصطلحات عند حازم، فلا شك أنه يرتبط أشد الارتباط بالثقافة العربية القديمة - كيف لا وهو الذي ينعى على شعراء زمانه ضعف النظم وابتعادهم عن مذهب الفحول - فقد شكلت له البيئة العربية القديمة رافدا مهما من روافد مصطلحاته، فاسترفد منها ومن مصطلحات أعرابها وأدبائها عددا لا بأس به ومن تلك المصطلحات: الفحولة، الصدق، الكذب، ارتجال، اقتصاص، تحجيل، تسويم، وتد... وغيرها من مصطلحات العرب المتداولة.

وعلى العموم يمكن القول إن الظاهرة المصطلحية عند حازم تتنازعها عدة مسارب، فلا شك أن قضية المصطلح شكّلت هاجسا لدى حازم، حيث نراه مأخوذا بمصطلحات النّقد والبلاغة العريين، والتي كانت مُشْتَتّة بين مصادر متعددة، كان له الفضل في جمعها؛ غير أنّ عمل حازم وما كان يصبو من خلاله إلى ابتداع علم للشعر المطلق، فرض عليه أن يرجع من دون إذنٍ منه إلى كتب الفلسفة والمنطق يسترفد مصطلحاتهما، ويستوعب معانيهما.

ويبدو اهتمام حازم بالمصطلح بشكل كبير من خلال عنايته الفائقة بإدراج مفهومات مصطلحاته سواء تلك التي كانت من صنعه هو، أو التي درج على استعمالها النقاد والبلاغيون والفلاسفة السابقون، وتؤكد ذلك فاطمة الوهبي مشيرة إلى أن حازما كان حريصا على تعريف معظم مصطلحاته، وتحديد دائرتها المصطلحية ولو أنّها في عبارات مقتضية⁽⁴⁴⁾، وكل ذلك يعكس حسبا وعيًا حادًا من قبل حازم بأهمية المصطلح وبأهمية إظهاره، سواء أكان ذلك على

المستوى التصوري النظري، أم كان على مستوى تفعيل المصطلح وتشغيله في إنتاج النظرية النقدية⁽⁴⁵⁾، وهو الأمر الذي دفع إحسان عباس إلى القول بأن حازما " لم يترك مصطلحا يمكن الإفادة منه في منهجه النقدي إلا حشده لهذه الغاية "⁽⁴⁶⁾.

ومن عناية حازم بمصطلحاته أنه كان يكرّر تعريف بعض المصطلحات أكثر من مرة، ومن أمثلة ذلك تفريقه بين المستحيل والممكن الوقوع في إشارة منه إلى أنه قد تم تعريف ذلك ومنها قوله: "وقد تقدّم أنّ الفرق بين المُمتنع والمستحيل هو أن المستحيل لا يمكن وجوده ولا تصوّره في الوهم... والممتنع هو ما يمكن تصوّره في الوهم وإن لم يمكن وجوده"⁽⁴⁷⁾، إلّا أن هذه العناية في تحديد المصطلحات وتكرار مفاهيمها قد أعابها بعضهم بحجة أنها لا تحتاج إلى كل ذلك الاهتمام فهي تعريفات قد أتى عليها السابق واللاحق، وبالفعل فكان الأولى بحازم أن يبذل هذا المجهود ويصرفه في تعريف كثير من المصطلحات الخاصة التي ضنّ بتعريفها، أو فرق دلالاتها ومفاهيمها في سائر الكتاب⁽⁴⁸⁾.

ومن مزالق المصطلح عند حازم أنه كثيرا ما كان يذكر المصطلح غير مرة، مؤخّرا تعريفه أو تحديده بصفحات، بعد أن يكون قد استخدمه مرات عديدة بدون تعريفه أو حدّه كما فعل مع مصطلح الأسلوب، والنظم والمُنزع⁽⁴⁹⁾.

وعلى الرغم من عناية حازم بمصطلحاته فهو لم يكن ليهتم بما تنأهى في الصّغر، فقد جعل كلّ اهتمامه بالمصطلحات الكلية أو المركزية التي كانت من استنباطه هو، لذلك نراه أغفل تعريف بعض المصطلحات الجزئية وقد كرر في بعضها " لأن الأهم عنده هو القوانين الكلية، والذي يُصرف همّة إلى وضع القوانين الكلية لا تُناسبه العناية بالمصطلحات الجزئية... وأيضاً وضّع المصطلح يعني تحديدا دقيقا لمفهوم معيّن لا يمكن معه إسقاط بعض هذا المفهوم أو ضمّ غيره إليه دون أن يتغير بذلك لفظ المصطلح "⁽⁵⁰⁾.

على أن هذا الإغفال في تعريف بعض المصطلحات أو التكرار في بعضها، لا يعني بأي حال عدم دقته في استخدام المصطلح، وإنما رغبةً منه كان يترك الفرصة للقارئ في كثير من الأحيان ليستخلص المفاهيم لوحده ويدرك الحدود بعقله، ويرجع ذلك إلى كون حازم قد توجه بكتابه إلى القارئ الذكيّ الأملعيّ والذي تكفيه اللَّمحة.

3. المصطلحات المركزية

المميز لظاهرة المصطلح عند حازم أنه قد بنى نظريته النقدية والبلاغية على جملة من المصطلحات المركزية، والتي شكلت مفاهيمها أسسا لهذه النظرية ومن تلك المصطلحات: مصطلح الشعر الذي شكل قطبا أساسيا كان عليه مدار القول، ومن أمثلة تلك المصطلحات أيضا، بعض المصطلحات التي أجهد نفسه في وضع المدلول العلمي الدقيق لها ومنها: التّخيل⁽⁵¹⁾، المعاني⁽⁵²⁾، المهيئات⁽⁵³⁾، الاستغراب والتّعجيب⁽⁵⁴⁾، الإختلاق الإمكانيّ والإفراط الإمكاني⁽⁵⁵⁾، الأغراض⁽⁵⁶⁾، الكلام المخيّل⁽⁵⁷⁾، النّظم⁽⁵⁸⁾... وغيرها من المصطلحات التي تبيّن بقدره حازم على الدّقة في تعريف المصطلحات التعريف العلمي.

ومن المصطلحات المركزية أيضا التي كان عليها مدار تأليف كتاب المنهاج مصطلح البلاغة كما اصطلاح عليه حازم (علم البلاغة) أو (علم اللسان الكلي)⁽⁵⁹⁾، وإعطاء صفة العلمية لهذا المصطلح من قبل حازم كفيل بإدراك مدى استيعابه للمفهوم الاستيعاب الدقيق، فقد شكّل مصطلح علم البلاغة هاجس حازم الكلي في بحثه، فهو يعني به علوم اللسان مجتمعة وقد أكسبه مفهوما مغايرا لما كان سائدا لدى السابقين، إذ إنّ علم البلاغة الحازمي يختص بالبحث في القوانين الكلية ويتجاوز الجزئيات التي ثبتت عند البلاغيين الآخرين، لذلك نرى مصطلح علم البلاغة قد اكتسب مع القرطاجي "خصائص أكثر شمولية"⁽⁶⁰⁾ مقارنة بغيره من النقاد والبلاغيين.

4. خاتمة:

لعل طبيعة المصطلح عند حازم تتميز بالاتجاه إلى الشمولية والتنوع والتعدد من حيث المصادر ووجوه الاستعمال، فحازم قد سعى إلى إقحام مصطلحات جديدة إلى البلاغة العربية. ولا شك أن هذه الموسوعة المصطلحية التي ميزت كتاب المنهاج تشي بشكل كبير على أن حازما كان يسعى إلى صياغة نظرية نقدية منهجية تهدف إلى تأثيل حدود المصطلحات وإبراز معالمها⁽⁶¹⁾، وكان من نتائج سعيه هذا أن أسهم في إغناء المصطلح النقدي العربي من خلال تحديد مفاهيمه بالدقة العلمية المطلوبة، وتصحيح مفاهيم السابقين أحيانا، وبالإضافة والتجديد والابتكار في أحيان أخرى.

واللأفّ للظن أن القرطاجي خلال تشكيله لمعالم نظريته كان يضع نُصْبَ عَيْنِهِ مجموعة من المصطلحات والعلامات المميّزة والمؤسّسة لمنهجه النقدي، والمتفحّص لمنهاجه سيلاحظ -لا محالة- أنه أقام حقلا مصطلحيا غنيًا، يمكن من خلاله معرفة الحدود الدقيقة لنظريته، وفهم المقاصد الجزئية لفكره النقدي.

لقد أدرك القرطاجي الأهمية الجليّة والكبيرة التي يجب إعطاؤها للمصطلح وإيلاءها لمفهوماته وحدوده، الأمر الذي أسبغ نظريته بالدقة والشمول والتكامل؛ ولا بجانب الصواب في الختام إذا قلنا أن الكثافة المصطلحية في المنهاج تستدعي تخصيص دراسة مستقلة لظاهرة المصطلح عند حازم، دراسة تتطلب الجرد الكلي للمصطلحات من خلال البحث في المصادر التي استقاها منها حازم، ثم تحديد مفاهيمها العلمية التحديد الدقيق، ثم النظر إذا ما كانت من صنعه هو أو ابتكاره، أم أنها ترجع إلى غيره من النقاد والنحاة، ولا شك أن مثل هذه الدراسات تقدم إضافات مهمة إلى حقل المصطلح النقدي العربي القديم.

5. الهوامش:

(1) أبو الحسن حازم القرطاجي: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، ط، 3 دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص252.

(2) قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 68.

(3) أحمد مطلوب: المصطلح النقدي، المجمع العلمي العراقي، العدد 4، 1987، ص 107.

(4) عبد السلام المسدي: اللسانيات وعلم المصطلح العربي ، ضمن (اللسانيات في خدمة اللغة العربية)، مركز الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، 1981، تونس، ص29.

(5) تجدر الإشارة هنا إلى أن هناك بعض البحوث الأكاديمية التي عنت بدراسة المصطلح النقدي عند القرطاجني، وهي دراسات مختلفة من حيث المنهج ولعل أهمها: المصطلحات النقدية في كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، للإدريسي أحمد، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، جامعة فاس مسجلة تحت رقم 651، ودراسة أخرى عنوانها المصطلح النقدي عند حازم القرطاجني (معجم و تفسير، ومصادر وإشكالية) لصاحبها عباس عبد الحليم عباس، رسالة ماجستير بجامعة اليرموك، وكذلك الفصل الذي خصصته فاطمة الوهبي لدراسة المصطلح النقدي من حيث علاقته بصناعة المعنى، ص255 وما بعدها من كتاب نظرية المعنى عند حازم القرطاجني.

(6) القرطاجني: منهاج البلغاء ص 48.

(7) المصدر السابق: ص 143.

(8) المصدر نفسه: ص 252

(9) نفسه: ص 25.

(10) نفسه: ص 144.

(11) نفسه: ص 48.

(12) نفسه: ص 48.

(13) ومن أولئك النقاد الذين استقى منهم مصطلحاته نجد بالدرجة الأولى ابن سنان الخفاجي، وابن رشيق القيرواني وغيرهم.

(14) عباس عبد الحليم عباس: معايير تشكل المصطلح وإشكالاته في النقد العربي القديم، حازم القرطاجني نموذجاً: ، مجلة البصائر، مج 13، العدد 02، الأردن، 2010، ص193.

(15) القرطاجني: منهاج البلغاء ص 86.

(16) الفارابي: إحصاء العلوم، تقديم وشرح: علي بوملحم، ط1، مكتبة الهلال، 1996، لبنان، ص42.

(17) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

18 نفسه: ص 42

(19) أريستو طاليس: فن الشعر، ترجمة وشرح وتحقيق عبد الرحمن بدوي، النهضة المصرية، القاهرة، 1952، ص180.

(20) ألفت كمال الروبي: نظرية الشعر عن الفلاسفة المسلمين (من الكندي حتى ابن رشد)، ط1، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، 1983، ص111،

112.

21 شكري محمد عياد: في الشعر لأريستو طاليس ، تحقيق وترجمة ، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967، ص267.

- (22) عباس عبد الحليم عباس: معايير تشكل المصطلح وإشكالاته في النقد العربي القديم: ص 193-194.
- (23) نفسه: ص 29.
- (24) ابن سينا: فن الشعر: ،ضمن فن الشعر ، ترجمة عبد الرحمن بدوي، النهضة المصرية، القاهرة، 1952، ص 161-162.
- (25) نفسه: الصفحة نفسها .
- (26) مصطفى الحوزو: نظريات الشعر عند العرب (الجاهلية والعصور الإسلامية)، ط 2، دار الطليعة للطباعة والنشر ، 1988، 2 / 137.
- (27) المنهاج: ص 90، وربط حازم بين التخييل والتعجيب، جعل التعجيب سببا في زيادة التخييل ذلك ما يعزز دلالة مفهومه للشعر التي تقوم على التأكيد على أن التعجيب حركة للنفس، إذا اقترنت بحركتها الخيالية، قَوِي انفعالها وتأثيرها. ينظر المنهاج، ص 71.
- (28) الإدريسي أحمد: المصطلحات النقدية في كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، جامعة فاس، مخطوطة رقم 651، ص 27.
- (29) المنهاج: ص 28
- (30) عبد الرحمن بدوي: فن الشعر، ص 06.
- (31) ابن رشد: تلخيص كتاب الشعر (الشرح الوسيط) ضمن: فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، النهضة المصرية، القاهرة، 1952، 204.
- (32) المنهاج: ص 28.
- (33) أرسطو: الخطابة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، ط 2، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص 196.
- (34) ابن سينا: الخطابة، تحقيق محمد سليم سالم ، القاهرة، ص 203. وأصل القول في الترجمة العربية القديمة كما يلي: "فإن ما نفعل في اللفظ من التبديل أو التغيير فليحدث لهم بزيادة الهيبة والخذر، فإنه قد يعتريهم من المقالة مثل ما الذي يعتريهم من الناس فيما بين الغرباء وأهل المدينة"، ينظر: الخطابة لأرسطو، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، 1979، ص 186. والقول أيضا في تلخيص الخطابة لابن رشد يرد بهذا الشكل: "وإنما كانت الألفاظ المغيرة تعطي في المعنى أمرا زائدا لموضع الغرابة فيها ، فإنه كما يعرض لأهل المدينة أن يتعجبوا من الغرباء الواردين عليهم ، وتحشع لهم أنفسهم، كذلك في الألفاظ الغريبة عند ورودها على الأسماع"، ينظر تلخيص الخطابة لأبي الوليد بن رشد، تحقيق محمد سليم سالم ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1967، ص 541.
- (35) المنهاج: ص 96.
- ³⁶ أرسطو: فن الشعر ، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ص 72
- ³⁷ يوسف الادريسي: التخييل والشعر حفريات في الفلسفة العربية الاسلامية: ، ط 1، دار الأمان ، الرباط، 2012، ص 63.
- ³⁸ المنهاج : ص 76.
- ³⁹ نفسه ، ص 76.
- ⁴⁰ نفسه ، ص 76
- ⁴¹ نفسه ، ص 76

⁴² نفسه، ص 78.

(⁴³) المرجع السابق: ص 28. ومن تلك المصطلحات: الخيال، التخيل، المعاني الجمهورية، المتصورات، المعاني الخطابية، الهيئة، الهيئة النطقية، الهيئة التنظيمية، الاشتراك، القياس. ويذهب أحد الباحثين إلى تعميم الأثر الأرسطي في النقد العربي حيث يقول: "إن المصطلح الأرسطي في النقد العربي لا يترك مجالاً للشك في أثر الفلسفة فيه، فمسائل اللفظ والمعنى والصدق والكذب والمحاكاة والتخيل كلها ذات جذور أرسطية، وبطبيعة الحال لا يمكن إنكار الجهد النقدي العربي في تكييف هذه المصطلحات يتمشى مع الممارسة الأدبية"، ينظر: رشيد مجاوي: حول قضية المصطلح النقدي، مجلة أدب ونقد، العدد 30، مصر، 1987، ص 55؛ ويرى عباس أرحيلة أن حازما حاول أن يستفيد من التجربة الفلسفية في مجال الإبداع، وذلك من خلال تحديد مقوماته وقوانين فن القول فيه، وتتضح إفادته في جانب التنظير وجانب المصطلحات وبالأخص المصطلحات التي وردت في كتابي الشعر والخطابة الأرسطيين، انطلاقاً من شروح الفلاسفة المسلمين، ينظر: حازم القرطاجني ومسألة التأثير في النقد العربي القديم، مجلة عالم الفكر، عدد 2، الكويت، 2003، ص 219. ويذهب بالرأي أيضاً إلى أن حازما قد منح المصطلحات الفلسفية والمنطق والفقه بعداً وظيفياً جديداً في مضمار النقد الأدبي. ينظر: الصدق والكذب عند القرطاجني: مجلة المناهل، عدد 56، المغرب، 1997، ص 196.

(⁴⁴) فاطمة عبد الله الوهبي: نظرية المعنى عند حازم القرطاجني، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2002، ص 256.

(⁴⁵) المرجع السابق: ص 256.

(⁴⁶) إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري)، ط 4، دار الثقافة، بيروت، 1983، ص 562.

(⁴⁷) القرطاجني: منهاج البلغاء: ص 145، فقد أشار إلى الفرق بين المستحيل والممكن الوجود في الصفحات 76 وأعاد المفهوم نفسه في الصفحة 133، وكرره في الاقتباس المشار إليه في الصفحة 145 من المنهاج.

(⁴⁸) الحافظ الروسي: ظاهرة الشعر عند حازم القرطاجني، ج 2، ط 1، دار الأمان، الرباط، 2008، ص 251 – 252.

(⁴⁹) القرطاجني: منهاج البلغاء، ص 12، 42، 69، 109، 241، 242.

(⁵⁰) الحافظ الروسي: ظاهرة الشعر عند حازم القرطاجني، ج 2، ص 254.

(⁵¹) القرطاجني: منهاج البلغاء: ص 89.

(⁵²) المصدر السابق: ص 18 – 23.

(⁵³) نفسه: ص 40.

(⁵⁴) نفسه: ص 71.

(⁵⁵) نفسه: ص 76.

(⁵⁶) نفسه: ص 77.

(⁵⁷) نفسه: ص 11 ونقل هذا المفهوم العلمي عن ابن سينا.

(58) نفسه: ص 199.

(59) نفسه: ص 244.

(60) جابر عصفور: مفهوم الشعر (دراسة في التراث النقدي)، مكتبة الأسرة المصرية، القاهرة، 2005، ص 160.

(61) الإدريسي أحمد: المصطلحات النقدية في كتاب المنهاج، مصدر سابق، ص 392.

6. قائمة المراجع:

- 1- إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري)، ط 4، دار الثقافة، بيروت، 1983.
- 2- أحمد مطلوب: المصطلح النقدي، المجمع العلمي العراقي، العدد 4، 1987.
- 3- الإدريسي أحمد: المصطلحات النقدية في كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، جامعة فاس، مخطوطة رقم 651.
- 4- أرسطو طاليس: الخطابة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، ط 2، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986.
- 5- أرسطو طاليس: فن الشعر، ترجمة وشرح وتحقيق عبد الرحمن بدوي، النهضة المصرية، القاهرة، 1952.
- 6- ألف كمال الروبي: نظرية الشعر عن الفلاسفة المسلمين (من الكندي حتى ابن رشد)، ط 1، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، 1983.
- 7- جابر عصفور: مفهوم الشعر (دراسة في التراث النقدي)، مكتبة الأسرة المصرية، القاهرة، 2005.
- 8- أبو الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، ط 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
- 9- حازم القرطاجني ومسألة التأثير في النقد العربي القديم، مجلة عالم الفكر، عدد 2، الكويت، 2003.
- 10- الحافظ الروسي: ظاهرة الشعر عند حازم القرطاجني، ج 2، ط 1، دار الأمان، الرباط، 2008.
- 11- رشيد مجايوي: حول قضية المصطلح النقدي، مجلة أدب ونقد، العدد 30، مصر، 1987.
- 12- ابن رشد: تلخيص الخطابة، تحقيق محمد سليم سالم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1967.
- 13- ابن رشد: تلخيص كتاب الشعر (الشرح الوسيط) ضمن: فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، النهضة المصرية، القاهرة، 1952.
- 14- ابن سينا: فن الشعر: ضمن فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، النهضة المصرية، القاهرة، 1952.
- 15- شكري محمد عياد: في الشعر لأرسطو طاليس، تحقيق وترجمة، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967.
- 16- الصدق والكذب عند القرطاجني: مجلة المناهل، عدد 56، المغرب، 1997، ص 196.
- 17- عباس عبد الحليم عباس: معايير تشكل المصطلح وإشكالاته في النقد العربي القديم، حازم القرطاجني نموذجاً، مجلة البصائر، مج 13، العدد 02، الأردن، 2010.

- 18- عبد السلام المسدي: اللسانيات وعلم المصطلح العربي، ضمن (اللسانيات في خدمة اللغة العربية)، مركز الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 1981.
- 19- فاطمة عبد الله الوهبي: نظرية المعنى عند حازم القرطاجني، ط 1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2002.
- 20- الفارابي: إحصاء العلوم، تقديم وشرح: علي بوملحم، ط 1، مكتبة الهلال، 1996، لبنان
- 21- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 22- مصطفى الجوزو: نظريات الشعر عند العرب (الجاهلية والعصور الإسلامية)، ط 2، دار الطليعة للطباعة والنشر ، 1988.
- 23- يوسف الادريسي: التخييل والشعر حفريات في الفلسفة العربية الإسلامية، ط 1، دار الأمان، الرباط، 2012.